بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

داب كثير من المستشرقين ... على الكتابة فى التراث الاسلامى بكل ما هو بعيد عن حقائقه ؛ وموجه ضده ، يبغى عليه ، ويبتغى طمسه .

وما من شك فى أن الاستشراق قام أساسا على كونه حركة موجهة تعمل من أجل تهيئة الشرق الاسلامى لتقبل التيارات التى يراد تصديرها اليه فى مجالات الثقافة والدين والسياسة والاجتماع . وهى حركة ترجع جذورها الى ما يزيد عن سبعة قرون ؛ الا أن نشاطها فى القرنين الأخيرين كان — وما زال — ملموسا .

وفى كتابات المستشرقين عن التراث الاسلامى ، نجد عجبا .. فحين نحسن الظن ببعضهم نقول أن ما سطروه ينم عن جهل فاضح . وحين نسىء الظن بالبعض الآخر — ولنا العذر فى ذلك — نقول أنه جهل متعمد ، يعمل من أجل تشويه هذا التراث ، وقلب صورته ، والحاق الأذى به .

على أنه وجدت دائما قلة من المستشرقين اتسمت أبحاثهم فى التراث الاسلامى بالتجرد والموضوعية ، بل وكان منهم من وجد نفسه مضطرا الى قبول تعاليم الاسلام والايمان بتراثه الحضارى ، عن رضى وقناعة .

* * *

يقول المستشرق النمساوى ليوبولد فايس (١) فى كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » وذلك فى معرض حديثه عن الاستشراق والمستشرقين، وهو واحد منهم :

---

(١) تسمى بعد ذلك باسم : محمد اسد

« قد لا تقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ؛ ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير .

الا أنها حالما تتجه الى الاسلام ، يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب فى كتاباتهم عن الاسلام .. ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر ، كمالو أن الاسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث .. بل أنه متهم يقف أمام قضاته .

أن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول اثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع .. !

وعلى الجملة فان طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش فى القرون الوسطى . أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب، ولكنها كانت فى كل دعوة تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل .

ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا اليه مبدئيا ، واذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود ، عمدوا الى اقتطاع أقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ، ثم فصلوها عن المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمية ومن سوء القصد ، ومن غير أن ينسبوا قيمة ما الى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر .. أى من قبل المسلمين أنفسهم » (١) .

* * *

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : تأليف الدكتور محمد البهى ـ الناشر مكتبة وهبه بالقاهرة ـ الطبعة الثامنة ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ومن أجل تحقيق الأهداف الحقيقية للاستشراق ، فقد أنشئت الجمعيات وعقدت المؤتمرات ، وأصدرت الكتب والصحف والمجلات ودوائر المعارف، ومن أمثلة ذلك :

مجلة « العالم الاسلامى » بالانجليزية ـ "THe Muslim World

مجلة « العالم الاسلامى » بالفرنسية ـ "Le Monde Musulman

« دائرة المعارف الاسلامية » "The Encyclopaedia Of Islam

ثم ما كتبوه عن الاسلام والعرب فى دوائر المعارف الأخرى مثل :

« دائرة معارف العلوم الاجتماعية "Encyclopaedia Of social Sciences

« دائرة معارف الدين والأخلاق » ـ "Encyclopedia Of Religion and Ethics

وتكتب هذه « الدائرة » الأخيرة عن النظرية الذرية فى الاسلام فتقول :

« ان نشأة النظريات الذرية بين مفكرى الاسلام ، يحيط بها الغموض والابهام . ومن المحتمل أن تكون تلك النظريات قد وجدت طريقها الى الاسلام ، عن طريق مذهب ارسطو طاليس فى الطبيعة ، وشروح الأفلاطونية الحديثة .

ونستطيع تتبع أثر هذه العقيدة الذرية مبكرا منذ القرن التاسع (الميلادى) فنجد أن (ابراهيم) النظام (٨٤٥ م) يذكر كخصم لفكرة الذرة ، وأن الكندى (٨٧٠ م) كتب مقالة ضد أشياعها .

ان أول صيغة معترف بها لعقيدة الذرة هى التى جاء بها أبو هاشم البصرى (٩٣٣ م) ، والذى تعتبر نظريته فى الواقع نظرية المعتزلة من أهل البصرة فى القرن العاشر الميلادى ، وتوجد فى كتاب المسائل لمؤلفه أبى رشيد سعيد بن محمد النيسابورى الذى عاش فى الفترة من ٩٣٢ الى ١٠٦٨ م . وفيما يلى موجز لآرائه :

أن الذرة (الجـزء الذى لايتجزأ) (١) أو كما تسمى عادة المـادة (الجوهر) تمتلك فى ذاتها (جوهر فرد) كخاصية تتعلق بكنهها ، امكانية ملء الفراغ (التحيز) .

وتعتبر المواد ذات شكل مكعبى ، وهى جميعا من نفس النوع ، ومن ثم فان الاختلاف الحقيقى بينها ينحصر فى حقيقة أن كلا منها يشغل جزءا محددا من الفراغ (الحيز) .

وعلاوة على الوجـود والتحيز ، فان كلا منها له أيضا مدى محـدد (جهة) والذى بواسطته يمتنع على المواد الأخرى اغتصاب موضعه .

وأخيرا فان المواد لها خاصية تقلد الحوادث ، والتى يمـكن بفضلها تحديد نوعيتها ، وتتحرك هذه المواد فى فراغات خالية ، وتتداخل بالضغط والتصادم . والبرهان على هذا لا يقوم على مجرد استنتاجات ولكن تؤيده التجارب البسيطة (٢) .

* * *

ولما كانت مقدمة هذا الكتاب لا تصلح مكانا لمناقشة ما تقوله « دائرة معارف الدين والأخلاق » عن النظرية الذرية فى الاسلام ، الا أن هنـاك نقطتين نقف عندهما قليلا ، لنقول فيهما أقل ما يمكن أن يقال :

الأولى ــ ان رد أقوال الفلاسـفة المسلمين فى الذرة الى الفلاسـفة الأغريق ولاحقيهم ، انما هو قول يجافى الحقيقة ، ألقى به على غير أساس لعدة أسباب منها :

---

(١) الكلام الذى بين هذه الاقواس من وضع كاتب ذلك الموضوع فى « دائرة معارف الدين والاخلاق » .

(٢) Encyclopedia Of Religion and Ethics, edited by : James Hastings, 1952.

١ — قول تلك « الدائرة » : من المحتمل أن تكون تلك النظريات قد وجدت طريقها الى الاسلام عن طريق مذهب ارسطو طاليس فى الطبيعة .

فهذا القول بنى على ظن وتخمين و « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

٢ — ثم هذه النتيجة التى توصل اليها المستشرق الألمانى أوتو بريتزل فى بحث نشر فى مجلة « الاسلام » Der Islam تحت عنوان :

مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين فى الاسلام

بحث فى مسألة العلاقات بين علم الكلام الأول عند أهل الاسلام وبين الفلسفة اليونانية .

ولقد قرر فى نتيجة بحثه ما نصه :

« من هذا ينتج لنا أن مذهب الاسلاميين فى الجوهر الفرد لا يمكن أن يعتبر مأخوذا عن مذاهب متعددة لليونان فى الجوهر الفرد » (١) .

الثانية — ان القول بأن النظرية الذرية فى الاسلام يحيط بها الغموض والابهام ، انما هو قول شطط أخذ جانبا قشريا مما قاله بعض الفلاسفة المسلمين عن الذرة ثم بنى عليه حكمه . بل أن ذلك الجانب أسىء تقديره أيضا ، اذ ألقيت عليه شبهة كونه وليدا للفلسفة الأغريقية .

ولكن ما الحيلة .. . ؟

أنه الجهل بالتراث الاسلامى ، أو التجاهل المتعمد لما فيه .

ونستطيع ان نقرر بوضوح : انه لو بحث ما قيل عن الذرة فى التراث الاسلامى بروح علمية لا تعرف التحامل والحيود عن الحقيقة ، لأمكن

---

(١) مذهب الذرة عند المسلمين — ص ١٤١ .

اكتشاف « عالم الذرة » قبل عدة قرون من بدء اكتشافه فى مطلع القرن العشرين ، كما سوف نستبينه من هذا الكتاب .

* * *

هذا ـ ويقع هذا الكتاب فى بابين :

الباب الأول ـ وهو يعرض « النظرية الذرية الحديثة» كحقائق وتاريخ كما تستقى من تراث الاسلام والعلم الحديث .

ولئن كان قد سبقت الاشارة الى بعض ما فى هـذا الباب فى مؤلف سابق (١) الا أن ما تجمع بعد ذلك من معلومات كان حافزا قـويا لاعادة عرض الموضوع مفصلا على هذه الصورة .

الباب الثانى ـ وهو يناقش « التدمير الذرى فى القرون الأولى » ـ فيعرض كيف هلكت ثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، ثم يستنتج أن ما نزل بتلك الأقوام كان كارثة ذرية .

* * *

وأخيرا ـ نقول ما أمر الله بقوله رسول الاسلام :

« قل : ان ربى يقذف بالحق ، علام الغيوب .

قل : جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٢) .

أحمد عبد الوهاب

---

(١) كتاب : فلسطين بين الحقائق والاباطيل ـ للمؤلف .

(٢) سورة سبأ : ٤٨ ـ ٤٩ .